قـــــراءة في أقصوصة

خطوات في الثلوج " لزوليخا السعودي"

إعداد فرقة بحث
السرد النسائي في الأدب الجزائري المعاصر
عالية علي – مفقوده صالح – زغينة علي

خطـوات في الثلوج [1] عنوان أطلقته الأديبة زوليخا السعودي* على واحـدة من قصصها القصيرة المنشورة في سلسلة: ذاكرة الأدب الجزائري وهـو عـنوان اختير بعناية فائقة، ووعي تام، وأدبية ناضجة، ذلك أننا نجد ملامـح هـذا العنوان ودلالاته تتسرب في كل أجزاء النص وتتموضع في مقاطعه في صور متباينة شكلا متفقة دلالة.

في بداية القصة نجد الوجه السافر للعنوان "خطوات في الثلوج" يبرز بشـكل واضـح في قولها:" ورنوت إلى الثلوج البيضاء التي تغطي الأرض هازئة.. إن آثار أقدامنا الخفيفة تنحفر فيها تاركة غورا عميقا" [2]، وقبل أن نفكر في الذي يكمن وراء هذا السفور ونسرح العقل والخيال لارتياد الآفاق الرحـبة الحالمـة التي يدفعنا إليها التصوير، فيثير في عمقنا مجموعة من الأسئلة، ماذا تعني الكاتبة بالثلوج البيضاء؟ وهل هناك ثلوج غير بيضاء؟ ما دلالـة هـذه الأقدام التي تنحفر في الثلوج؟ نجد الكاتبة تؤكد سفور العنوان بشكله المباشر أيضا مع تلون خفيف بالأحاسيس وموقف نفسي يضفي على العنوان دلالات اجتماعية فتقول: "حتى الثلوج لم توح*لنا بالمرح أو اللعب.. بـل كانـت تهـز أجسادنا المقرورة.. وتغرق أقدامنا في الماء القارس." [3]

فالثلوج كثيفة والأقدام تخطو فيها فتغرق، لكنها لم تدخل السعادة والبهجة على النفوس، بل أضافت إلى تعاستها تعاسة وإلى آلامها آلاما أخرى. وتنبعث في نفس الدارس أسئلة مشروعة، لم لم توح الثلوج بالمرح ؟ لم فقدت جانبها المضيء المشرق الإيجابي ؟ ولماذا أبرزت الكاتبة جانبها المؤثر السلبي فقط؟ .

ولا نكاد نمضي في قراءة القصة حتى تصدمنا الكاتبة بعد سطور بتكرار العنوان بشكل سافر أيضا مع تطعيمه بتطلع للمستقبل، بأشياء جديدة يمكن أن تحدث التغيير، باختلاف وقع الخطى، فأصحاب الخطى يختلفون عن الماضي في حاضر لهم وآت،إن الماضي أصبح لا ذكر له، فتقول: " الثلوج البيضاء، أتدري أي أقدام تسير اليوم وغدا عليها." (4)

إن الكاتبة تؤكد على بياض الثلوج، رغم أن بياضها شيء عادي فليست هناك ثلوج غير بيضاء، فما الذي تريده؟ وما الذي تبحث عنه؟ وهي تؤكد أيضا على الأقدام التي تسير وتخطو وتتحرك ففي الحركة حياة وفي السكون موت واندثار، وحركة السير مؤكدة ومستمرة ومتطورة وفاعلة في الزمن.

والكاتبة تصر قبل نهاية قصتها القصيرة على إعادة عنوانها بشكل مباشر أيضا، فتعرض إلى ذكر الثلوج من جهة وذكر من يسير في هذه الثلوج من جهة أخرى، ولكنها تلمح إلى طول هذا الطريق وضرورة الصبر والروية والتأني فقالت: " وحدقت في الفتاة الصغيرة التي ظلت طوال الطريق صامتة ترمق الثلوج " (5).

وفـــي خاتمـــة القصة تجسد من جديد العنوان الذي وسمت به قصتها فيـــبرز بعناصره الكاملة: الخطوات، الثلج، الآثار، الإنسان، ويبدو الإنسان فـــاعلا مؤثـــرا يتخطى الصعاب ويشعر بلذة الانتصار، ويجني ثمرة الصبر فينتقل من ماض سحيق أليم إلى مستقبل واعد.

في هذه القصة القصيرة التي لا تكاد تتجاوز ست صفحات من الحجم المتوســـط وجدنـــا الكاتبة تكرر العنوان الذي اختارته لقصتها بشكل مباشر ســـافر خمس مرات فتذكر أهم العناصر التي تكونه وهي: الثلج، الخطوات، الآثار. وظفته الكاتبة بالشكل التالي: مرة في البداية ومرة في الخاتمة وثلاث مـــرات فـــي تطور الحدث في القصة. وهذا يدل على أن العنوان ينتشر في القصـــة كلها، ونلاحظ أنه في كل مرة تضيف له الكاتبة ما يميزه عن المرة الســـابقة وينمـــيه ويطـــوره، ففي المرة الأولى في بداية القصة كانت عودة العنوان في شكل خبر بسيط ينقل ويقدم صورة واضحة للملتقى "ورنوت إلى الـــثلوج البيضاء التي تغطي الأرض هازئة.. إن آثار أقدامنا الخفيفة تتحفر فيها تاركة غورا عميقا " (6) ، وهي صورة تكشف عن مواجهة بين الإنسان والطبـــيعة متمثلة في الثلوج- دون التعرض الآن إلى دلالات الثلوج في هذا السياق – فالإنسان يرنو؛ أي يديم النظر في سكون طرف، ويصغي (7) وهذا يعنـــي أنه يفكر ويدبر، والفعل مسند إلى الماضي. ثم يتطور الخبر فيصبح مؤكدا " إن آثار أقدامنا الخفيفة تتحفر فيها" دالا على مقدار تأثير الإنسان فيما حوله، وهو تأثير قد يكون عميقا.

والطبـــيعة ممثلة في الثلوج تغطي الأرض في استهزاء وسخرية لا تلقـــي بـــالا لما حولها فلا تتأثر بما يجري ولا تحس بما يدور ، وهو وجه

خـــادع غير حقيقي، لأنها في الحقيقة يمكن أن تتأثر وتتغير وتستجيب لمن حولهـــا وخاصــــة للانسان، فهو في إمكانه أن يكيفها وأن يهيئها لصالحه إن كان فاعلا إيجابيا، أما إن كان سلبيا فلن تشفق عليه.

وفي عودة العنوان في المرة الثانية" حتى الثلوج لم توح لنا بالمرح او اللعب..بل كانت تهز أجسادنا المقرورة..وتغرق أقدامنا في الماء القارس"[8]. و في المرة الثالثة " الثلوج البيضاء، أتدري أي أقدام تسير اليوم وغدا عليها "[9] وفي المرة الرابعة " وحدقت في الفتاة الصغيرة التي ظلت طوال الطرق صامتة ترمق الثلوج "[10].

يتوشـــح العـــنوان فـــي كل مرة بمعنى إضافي وهو ما يجعل الحدث يـــتطور ويـــنمو داخــــل هذا الجزء من القصة القصيرة، فالثلوج المواجهة للإنســـان لا تفرحه بقدر ما تسبب له آلاما وشقاء، وهي نظرة تعكس واقعا نفســـيا واجتماعـــيا مؤلما وقاسيا للكاتبة والمجتمع الذي تمثله، خاصة وهي تســـتعمل في هذه العبارة ضمير الجماعة " نا". وهذه الثلوج نفسها لا تفرق بيـــن الذيـــن تواجههم اليوم والذين ستواجههم غدا، فإن كانت هي لا تتغير وذات طبـــيعة واحـــدة فإن الآخرين تغيروا ويتغيرون ويُغيرون، ثم لا تلبث الكاتـــبة أن تضـــيف عنصرا جديدا هو "الفتاة " التي طال بها الطريق وهي تكتفـــي بالتحديق في الثلوج والصمت، وكأنها تريد منها أن تنطق وأن تثور معبرة عن رأيها شاقة دربها مشكلة حياتها.

وفي خاتمة القصة يتطور وعي الإنسان في مواجهته فيدرك أنه يؤثر ويعـــي أن آثاره عميقة، ويتأمل آثاره ويدرسها ويصفها ويحس بها " وتلفتُ

خلفي في تأثر حيث كانت آثارنا عميقة في الثلوج فشعرت أنها ليست مجرد آثار " (11)

إن العنوان مكون من ثلاث كلمات: خطوات، في، الثلوج . فالخطوات جمـــع مؤنث سالم لخطوة، وهي مسافة ما بين القدمين عند الخطو (12) وهي تـــدل على المشي والانتقال من مكان إلى آخر من جهة، وعلى وجود إنسان ينتقل من جهة أخيرة، فهي دليل حركة وحياة، وأن الذي يخطو يغير موقعه كـــل مـــرة باستمرار، وما دامت الكلمة قد وردت بصيغة الجمع "خطوات" فالتغـــير مستمر، وهذا التغيير يقضي على السكون والجمود ويبشر بالحيوية والنشـــاط فيؤثر فيما حوله خاصة إذا أكدنا أن الخطوة تبدأ من نقطة الثبات والاستقرار والارتكاز لتنطلق في الحركة. ومن هنا يمكن أن تكون الخطوة بمعـــنى الخـــروج من وضع إلى وضع آخر أو من مرحلة إلى أخرى بدافع التغيير والتطور ونتيجة لعوامل كثيرة تساعد على هذا التغيير.

والـــثلوج جمع أيضا يدل على الكثرة، ويعني في دلالته اللغوية البرد الشـــديد(13) الذي يجمد الماء ويؤثر في الكائنات، والذي لا يواجه هذا البرد بالحركة والنشاط والعمل الدؤوب، فيتكيف بما يقاومه ويتسلح بما يدفعه، فإنه يـــتجمد ويموت. وهي ظاهرة طبيعية فصلية لها فوائدها بما توفره من ثروة مائـــية وجمـــال خلاب وتنوع في الحياة. مما جعل الكلمة تنتقل من معناها الحقيقي إلى المجاز فقيل: أثلج الأمر صدره إذا رضي واطمأن (14). فالثلوج مبعث سعادة وفرحة للإنسان أيضا.

ولعل ما يتبادر إلى أذهاننا ونحن نسمع كلمة الثلوج بالإضافة إلى البرد الشديد هو اللون الأبيض.والألوان في حقيقة الأمر تحيط بنا من كل

جانب ونوظفها في كل حين وفي كل مكان بصورة حقيقية حينا ورمزية حينا آخر، وقد شحنتها المجتمعات بطاقات هائلة من الإيحاءات فقيل: المولود صفحة بيضاء، وهذا حظه أبيض، وهو أبيض القلب، (خال من الحقد والكراهية)، وبيض الله وجهه (دعاء له بالفلاح)، وله علينا يد بيضاء (فضله علينا لا ينكر)، والدرهم الأبيض لليوم الأسود[15]، وفلان أبيض نقي العرض[16]، ومن هنا ارتبط اللون الأبيض بالطهارة والنقاء وصفاء السريرة، فلبسته العرائس واستبشرت به المقبلات على الزواج.

أما الكلمة الثالثة في العنوان فهي من أحرف المعاني " في" وهي حرف جر يفيد الاستعلاء أي وظف بمعنى: على، وهي ليست ظرفية مكانية، لأن الخطوات واقعة على الثلوج ولـ " في "سبعة معان من بينهما المعنيان المذكوران [17].

تطـرح الكاتبة زوليخا السعودي في عنوان قصتها القصيرة "خطوات فـي الثلوج" معنيين ، معنى حسيا مباشرا غير مقصود يتمثل في الخطوات الحسية التي تترك آثارها بارزة للعينين فوق الثلوج الواقعية، ومعنى مجازيا يختزن قضايا نفسية واجتماعية، يختزن عادات وتقاليد، ويبين قيمة الإنسان ووجوده الحقيقي وعلاقته بالتغيير والثورة.

والمعـنى المجـازي للعنوان هو المقصود ويتمثل بصورة خاصة في شخصية المرأة في المجتمعات المختلفة وعلاقتها بهذه المجتمعات وضرورة تمـردها على التقاليد التي تقيدها وتجمدها، وتبيان أن جزءا هاما من تخلف المـرأة سـببه المرأة نفسها لرضاها بواقعها وتكريسها له، كما يبين العنوان إمكانية التغيير والطموح المشروع الذي يتحقق بالفعل والصبر والأناة.

فـــالخطوات حـــركة تدفع المرأة إلى الخروج من وضع سلبي يتصف بـــالجمود بـــل بالموت إلى وضع أفضل وهي حركة دائمة مستمرة تتخطى الماضــــي لتفرض نفسها في الحاضر بثبات ويقين ممزوجين بنشوة عارمة " يخـــيل إليـــنا أن الإنســـانية كلهـــا تطل علينا من وراء أشعة الشمس ترقب خطانا..وتبارك أهدافنا." [18]. والعقبات أصبحت هينة فـــ " الحواجز لم تعد تســـتطيع الثـــبات أمامنا " [19]. وبفضل الإرادة الصلبة والتعاون يتم التغلب علـــى الواقع التعيس الذي صار ماضيا ويتحقق النصر في الحاضر والتطلع لمستقبل مشرق " إنا نلتقي هنا ساعد بجانب ساعد، وتلفت خلفي في تأثر .. حيث كانت آثارنا عميقة في الثلوج ،فشعرت أنها ليست مجرد آثار إنها بذور تبذر في القلوب الطيبة فتجني منها الصمود والإيمان ." [20]

هـــذا المفهـــوم المجـــازي للعنوان نجده ينسحب على القصة القصيرة بكاملهـــا، فهـــو يذوب فيها ويبرز في كل مقطع من مقاطعها بأشكال متباينة وصـــور مـــتفاوتة وكـــأن القصة كلها تتلخص في العنوان، والعنوان يطول فيصبح قصة .

إن الغضـــب كـــان شـــديدا شمل الطبيعة والإنسان، وسببه هو فعل الانطلاق والانفلات وتجاوز العقبات والأسوار"أن تنطلق من بين الأسوار"[21] وهو فعل جريء متمرد لم يرض بالواقع فقرر أن يتجاوزه فكان أن أثار هذا الفعـــل الحفيظة وهيج الغضب، وهو غضب كاسح ساخط لون الطبيعة فبدت قاســـية ثائـــرة تســـلط نقمتها على شخصية الراوي ممثلة في ضمير جماعة المتكلمين " نا " "فأرسلت علينا عواصفها ورعودها" [22] . وبهذا نكتشف أن شخصية الراوي تنتمي إلى مجموعة " نا " يوحد بينها فعل مشترك يتمثل

في عدم الرضى عن الواقع المميت وعقد العزم على التغيير النابع من الذات الواعـيـة والساعية نحو حياة إنسانية مشرقة وهو ما يعبر عنه فعل الانطلاق وتخطي الحواجز التي لم تعد تستطيع الثبات، فالعزيمة قوية، والإرادة صلبة والرؤيا واضحة، فالمصير المشترك والأمل في تحقيق الذات خارج الماضي الأليم، يؤكد اللحمة بين الجماعة.

ان شخصـيـة الـراوي لا تـذوب فـي الجماعة ذوبانا كليا رغم أنها موجـودة فـيها وتسـعى إلى التطور داخلها، وكأنها لا تقوى على الصمود وحدها بل نجدها تبرز أحيانا متفردة ممثلة في ضمير المتكلم، سواء أكان ياء المـتكلم مثل: " وصلت إلى سمعي " [23]، "فبعثت في روحي"[24] ، "أعاد إلي مـراها ذكريات"[25] وقد تكررت الياء ستا وخمسين مرة في ثنايا النص من بدايـته إلـى نهايته.أم كان الضمير هو تاء المتكلم، مثل:" رنوت إلى الثلوج البيضاء" [26]، " الثلوج أعاد إلي مراها ذكريات حزينة دفنتها يوم أن تخطيت البيـت الضـيق وخرجـت " [27]. وقد تكررت تاء المتكلم في النص ثلاثا وثلاثيـن مـرة.أم كان الضمير ضمير المتكلم المنفصل أنا، أو أسند الفعل المضـارع له، مـثل:" مضـى وقت طويل وأنا أقنع أمي العجوز" [28] ، " واسـتمر الفـتى الشاعر في حديثه.. لكنني لم أعد أهتم بما أسمع.." [29] وقد تكررت هذه الظاهرة سبعا وعشرين مرة.

وبذلك يصبح بروز الراوي بشكل فردي مائة وست عشرة مرة، وهو حضور قوي يجعل شخصية الراوي شخصية محورية مهيمنة تطل علينا من كـل زاوية بل لا تكاد تغيب عن النص. ويـتأكد هذا الحضور أكثر عندما تنضـم إلـى الجماعة فتلتحم معها وتصبح جزءا منها في الفكر والإحساس

والفعـــل، ويظهـــر ذلك جليا في توظيف " نا " الدالة على الفاعل معبرة عن شخصـــية الـــراوي وعن الجماعة التي تنتمي إليها، مثل:" الحواجز لم تعد تستطيع الثبات أمامنا" (30) ،"تطلعت إلى الفتى الأسمر الذي جاء يرشدنا "(31) " وهزتـــنا رعشة البعث ولاحت لعيوننا تباشير الفجر"(32) وقد تكررت " نا " الدالة على شخصية الراوي اثنتين وخمسين مرة.

وتبرز شخصية الراوي ملتحمة بالجماعة أيضا عندما تلجأ إلى التعبير بالضمير المنفصل" نحن " الدال على جماعة المتكلمين، أو بالفعل المضارع المســـند لجماعة المتكلمين مثل:" نحن وحدنا نسجنا هذا الشعار البغيض من الـــتحفظ والتستر" (33) ، " إن شعورنا نحن في آلامنا وعواطفنا لا يمكن أن يشـــعر به أي كائن آخر لم يعش الجو الذي عشناه" (34) ، "إنما نسير ونسير حتى نصل إلى الحياة" (35) . وقد تكررت هذه الظاهرة أربعا وعشرين مرة.

وبهـــذا يصبح حضور شخصية الراوي ملتحمة بالجماعة بمقدار ست وســـبعين مرة في الحالين دالا على الالتفاف حول فكرة التمرد على التقاليد البالية والثورة عليها وتغييرها. فالجماعة تصمد وتصبر و حظها في التعبير أوفـــر. واحتضـــان الجماعـــة لهـــذه الفكـــرة يضمن لها البقاء والاستمرار والانتشـــار، وتصـــبح شخصية الراوي منشطة لهذه الجماعة ناطقة باسمها دافعة لها في خطوات ثابتة رزينة.

إن حضـــور شخصية الراوي في هذه القصة حضور مطلق، برز في أشـــكال لغوية مباشرة وصلت في مجموعها إلى مائة واثنتين وتسعين مرة. مـــن خـــلال تتـــبع مسيرتها في القصة نجد أن لها وجهين: أحدهما ظاهر سافر وثانيهما باطن مقنع خاف.

فمن سفورها أنها تكشف عن نفسها فنعلم أنها أنثى، تقول أمها وهي تخاطبها " سيري والله يرعاك ويرعاهم"[36]، وتقول هي عن نفسها:"كنت مصممة وعازمة على تحدي كل سد" [37]. ونعلم كذلك أنها قضت فترة صعبة في صباها وشبابها تحكمت فيها التقاليد المجحفة والأعراف المستبدة التي كانت تجعل المرأة شيئا من أشياء المنزل، لا إحساس له ولا رأي مهملة، مهمشة شبه ميتة " تلك النظرة التي جمدتنا وراء الجدران، أحجارا تتحرك كل حركة بحساب [38]، وفكرة الحجر الملقى المهمل تلح وتتأكد" هم أيضا لا يحبون أن أبقى حصى ملقى في الحفر"[39]. والحياة الصعبة القاسية لا تبرح ذاكرة الشخصية ضاغطة مؤلمة مسببة ألوانا من الشقاء والتعاسة " تلك الأيام هي الآن في أعماقي تشعرني بتعاسة الإنسان الذي يولد وفي يديه قيود"[40]. وهي معاناة مريرة تجرعتها "لا شيء أعمق من تلك المعاناة التي لا شك أن الضعفاء جميعا تجرعوها" [41].

ومن سفورها حديثها المباشر عن تمردها على أوضاعها وعزمها على تغييرها، وفرحها بكفاحها المتواصل ضد التخلف والقهر وسعيها نحو المساواة، ونشوتها بما حققته وتحققه "ما أجمل أن يكون للإنسان مبادئ يسعى لأجل تحقيقها... ونحن الذين قضينا في زوايا الضياع أعمارنا نعرف عذوبة أن نخترق طريقا أو طرقا لا تثنينا الأشواك" [42]، وهي فرحة تجعلها تتصور أن الإنسانية كلها تتطلع فيها "يخيل إلي أن الإنسانية كلها تطل علينا من وراء أشعة الشمس ترقب خطانا.. وتبارك أهدافنا.."[43].

ومن حديث الشخصية عن ماضيها المظلم القاسي، وكفاحها الصامد المثابر، وتطلعها لمستقبل أفضل، ونشوتها بما حققت من تقدم ونصر، تدرج

بعـــض القضايا بشكل مباشر سافر أيضا فهي تذهب إلى أن نصيبا وافرا من مشـــاكل المـــرأة ومعاناتهـــا تســـببت فـــيه هي، ذلك أنها كرست الأوضاع ورضـــخت لهـــا ورضيت بها ولم تحاول تغييرها " نحن وحدنا نسجنا هذا الشـــعار البغيض من التحفظ والتستر"(44) ، وهي تقر صراحة أن الرجل قد ساعدها في كفاحها المرير " وتطلعت إلى الفتى الأسمر الذي جاء يرشدنا إلى المســـعى" (45) فالفـــتى أرشـــدها إلـــى هدفها وساعدها على الوصول إليه وإخوانها في الوطن عطفوا عليها وشجعوها واهتموا بنجاحها " كلهم إخوتي يرمقونني بعطف ويشجعونني في صمت " (46) .

إن الجهل حدد الأفق، وأوهن الإرادة، وأمات الطموح، وسلب العزيمة والعلـــم وإن كان بسيطا أعاد الأمل، وبعث الإرادة، فكان الانطلاق والثورة وتم الحصول على النشوة واللذة.

إن الماضي المغلق كتم الأنفاس، وأمات الإحساس، وقتل الحب، لكنه كان سببا في التمرد وحافزا للتغيير ودافعا للثورة.

أمـــا ما لم تقله شخصية الراوي صراحة وما لم تكشف عنه بوضوح وحاولـــت لفـــه وطيه وتمريره فهو ما يتعلق بالأمور الجنسية الخاصة بها، ولعـــل ذلك يعود إلى كونها أنثى تعيش في بيئة محافظة تتحكم فيها العادات والتقاليد ومن ثم لم تستطع الجهر بأحاسيسها والكشف عن عواطفها وخاصة مـــنها ما يتعلق بالرجل. إذ لم يتعود المجتمع من امرأة في مثل وضعيتها أن تعـــبر عن موضوع جنسي حساس بصراحة ومباشرة، ثم إن موضوعا مثل هـــذا يكـــون الإيحـــاء بـــه والتلميح إليه أجدى وأجمل من التصريح تقول: " تخطيـــت البيـــت الضيق وخرجت أريد أن أحقق وجودي كإنسان"(47) إن

تحقـيق الوجـود لا يتم إلا بتكامل جوانب متعددة، مادية واجتماعية ونفسية ويشـكل اتصـال الأنـثى بالذكر جانبا أساسيا في تحقيق الوجود واستمرار الحـياة، ومن هنا كان تمرد شخصية الراوي على التقاليد والعادات والحياة المظلمة هو انطلاق نحو حرية تسمح بتحقق رغبات جنسية مشروعة كامنة داخلها. ويؤكد هذا الفهم ما قالته في سياق آخر "وتطلعت إلى الفتى الأسمر الـذي جـاء يرشـدنا إلى المسعى"[48] . فالتطلع هو رفع البصر للنظر إلى الشيء [49] وفيه شيء من التفرس في الشيء والتحديق إليه وإدامة النظر من امرأة إلى رجل أجنبي غريب يكشف عن رغبة مكبوتة ولذة حادثة من جراء هـذا الاتصال البصري ،خاصة وأنها أطلقت عليه لفظ " الفتى " وهو الشاب أول شـبابه بين المراهقة والرجولة[50]. وهي تصرح صارمة" وفي أعماقي نـار تـتأجج.. وفي روحي مشاعر تشتعل "[51]. إن باطنها تضطرب فيه عواطـف كثـيرة وأفكار أكثر، كلها يطمح في الخروج والتجسد في أرض الواقـع، والواقـع عنيد قاهر قاس لا يسمح بذلك ، فكان لا بد من الصراع والـثورة.والرجل هو الذي يجعلها تستفيق وتعود للحياة والوجود، هو الذي يخـرجها مـن الوهـم ويحقق ما تريده" وأفـقت مرة أخرى.. على صوت سـعيد."[52]. ولعلنا نكتشف من خلال هذه القراءة البسيطة لشخصية الراوي أنهـا شخصـية إنسانية فاضلة، ملائمة، لها شبيهاتها بالحياة، وهو ما يسمى بالإيهام بالواقع، متناسقة في أفعالها وتصرفاتها[53].غير أن ظهورها المباشر المهيمن على القصة وسم القصة بلون من الخطابية والسطحية، مثل:" لست يـا أمـي فـتاة..إني عرق من عروق الوطن وعلي أن أنبض وأخفق ككل العروق"[54]. إن ثورة الشخصية وغضبها وتمردها على أوضاعها لم يبرزه

الــتطور الطبيعــي الفنــي للحدث داخل القصة، بل جاء بتدخل سافر أنطق الشخصــية المحوريــة بما يراد لها أن تنطق به، وهذا التدخل المباشر في القصــة مــن الكاتبة لوصف أفعال الشخصية المحورية أو إظهار إحساسها ومعاناتهــا كــان في أغلب الأحيان بإنطاقها بما تفعل أو بما تحس بصورة مباشــرة، مثل:" إني أشعر أحيانا.. أن شعورنا نحن في آلامنا وعواطفنا لا يمكــن أن يشعر به أي كائن آخر لم يعش الجو الذي عشناه."[55]. فالكاتبة لم تســتطع أن تبرز أبعاد الشخصية المحورية في معاناتها الاجتماعية والنفسية والعاطفــية والوطنــية، في اللحظة التي تعالجها هذه القصة القصيرة، وذلك لعدم تمكنها من الوسائل الفنية لهذا النوع الأدبي التي يوظفها لتطوير الحدث والكشــف عــن كنة الشخصيات. واكتفت بإنطاق الشخصية في كل مرة بما تحــس ومــا تفعل ولعل ذلك ما سبب ثقلا في تطور القصة من البداية إلى الــنهاية. وتــنوء القصــة أكــثر بهذا الثقل عندما يكون الحديث الذي تقوله الشخصــية طويلا مملا، دون أن يضيف، فنيا وفكريا، شيئا ذا بال بقدر ما يكــرر فكــرة واحــدة ويؤكدهــا وهــي الثورة الذاتية على أوضاع المرأة والمســاهمة في ثورة أكبر، تقول:" لست يا أماه فتاة.. إني عرق من عروق الوطن وعلي أن أنبض وأخفق ككل العروق..نحن وحدنا نسجنا هذا الشعار البغــيض مــن التحفظ والتستر.. ووحدنا سنمزقه..سنمزق الفرق بين الفتى والفــتاة والخوف والوجل.. أخي سار ومهد لي الطريق وعلي أنا أن أكون الساعد والرفيق. "[56] ثم تضيف:" أخي.. ليس واحدا.. إنهم آلاف يا أمي بل ملاييــن هــم أبــناءهذه الأرض الكبــيرة.. كلهم إخوتي يرمقونني بعطف ويشجعونني في صمت هم أيضا لا يحبون أن أبقى حصى ملقى في الحفر..

وفي أعماقي نار تتأجج.. وفي روحي مشاعر تشتعل.. بخوتي يا أماه وراء القمم يقلبون صفحة التاريخ.. ويخلقون الغد الذي عشتم في ظمأ إليه"[57]. هي نصوص مسطحة تجمع أفكارا جانبية ولا تغوص في عمق اللحظة الشعورية الفكرية التي تعالجها القصة القصيرة.

في هذه القصة القصيرة" خطوات في الثلوج" شخصيات أخرى تلتف حول الشخصية المحورية " شخصية الراوي" وتساهم في إثرائها وعمقها وهي حسب ظهورها في القصة، عائشة، أمينة، سعيد، الأخ، الأم.

1- عائشة

فأما عائشة فقد ورد ذكرها في النص ست مرات، والاسم في دلالته اللغوية يعني توفر الحياة في الشخصية وتنعمها بها فـ: عاش، يعيش عائش، تعني صار ذا حياة[58]. ويكتسي الاسم دلالة اجتماعية إضافية إذ يطلق على المولودة الجديدة التي يرغب أهلها في أن تعيش ويتمنون ذلك فيطلقون عليها اسم " عائشة " تفاؤلا بأن تنعم بالحياة وألا يقترب منها الموت. ومن هنا نجد من ملامح هذه الشخصية أنها تتسم بالحياة وتنبعث الحياة فيما حولها، وأن شخصية الراوي المحورية تستمد منها الحياة، فهي تريد الانتقال من وضعية ميتة إلى وضعية حية وأن عائشة كانت رفيقا وعونا لها يسرا لها سبل هذه النقلة، تقول شخصية الراوي المحورية" وصلت إلى سمعي كلمات عائشة فبعثت في روحي الدفء"[59]. إن دفء عائشة ورعشة الحياة فيها انتقلا إلى الجسم البارد المثلج فأحيياه بعد موت وجعلاه يتحرك من جديد. وقوة الحياة في عائشة، وجرأتها، وشخصيتها المستقلة المتميزة مكنتها من أن تكون قدوة لغيرها وبخاصة لشخصية الراوي المحورية، فعائشة قبل غيرها كانت تطلق

اسم الشاعر المزيف على رفيقهم الأسمر سعيد، الذي كانوا يسمعون عنه قبل أن يلـتقوا بــه " فسميناه جميعا الشاعر المزيف، وعائشة أيضا كانت تدعوه كذلــك"[60]، وعائشة تسمح لنفسها بأن تسمع حديث سعيد فتستوعبه وتحادثه دون حرج. وهي بذلك تفتح مجالا واسعا رحبا أمام الشخصية المحورية التي تطمح إلى تحطيم الحواجز بين الفتى والفتاة" سنمزق الفرق بين الفتىوالفتاة والخــوف والوجــل."[61] وهــذا القول توجهه الشخصية المحورية إلى أمها بطــريق القول فقط لكن تطبيقه يكون من عائشة، فعائشة تكمل جانبا هاما. حــتى أنهــا تجــرأت وطالبت بأن تشارك سعيدا في الرأي" أتبقى أبدا تتكلم وحدك.. دعنا نشاركك الرأي يا أخي"[62]، وهي تبادر وتقاطع وتفرض نفسها كطرف أساسي في الحياة.

2 أمينة

أمــا أميــنة فقد ورد ذكرها في النص أربع مرات، والاسم في جذره يعنــي الطمأنينة وعدم الخوف، وهي شخصية تبدو هشة لا تستطيع الصمود كثــيرا، متعبة تبحث عن الاستقرار والوصول،" سمعت أمينة بصوت متعب خافت: ألم يزل الطريق طويلا يا سعيد."[63]،" لكن أمينة تهاوت إعياء"[64]. فالأمن الذي تقدمه هذه الشخصية أمن قاصر، أمن هش، يحتاج إلى سند متين وإرادة صــلبة، وعزيمة صادقة، ولهذا نجد هذه الشخصية لا تظهر وحدها، بــل تكون مع عائشة دائما، ومن ثم يشكلان عناصر الحياة المتكاملة، ولذلك تغامــر شخصية الراوي المحورية فتلتحق بهما لتتشبع بما يشعانه من حياة وأمــن "خرجت إلى حيث عائشة وأمينة وشعرنا ونحن نضرب الشارع أننا خُلقنا آنذاك فقط.. خلقنا لكي نؤدي الدور كأحياء"[65].

إن الشخصــية المحوريــة تستمد منهما طاقة الحياة وطاقة الإحساس بالأمــن، غــير أن الأمن (أمينة) غير ثابت وغير قوي يتعرض إلى هزات تعصــف بــه لكن عائشة بما فيها من قوة حياة تسنده وتقويه."تهاوت إعياء فصاح سعيد بعائشة: أسنديها يا أختاه" (66) .

إن الــتعاون والتضامن يؤديان حتما إلى تحقيق حياة مشرقة هي التي تطمح إليها الشخصية المحورية.

3- سعيد

أما سعيد فقد ورد ذكره في هذه القصة القصيرة أربع مرات، وهو اسم صفة، موضوع ليحمل على ما يوصف به (67)، والصفة التي يدل عليها هي نقيض الشقاء، ويتضمن أيضا معنى اليمن، والتوفيق فنقول: سعد يومك، أي يمــن، وفلان أسعده الله أي وفقه. وفيه معنى العون والإعانة أيضا فــنقول: ســاعده على الأمر مساعدة أي عاونه (68). ونرى هذه الشخصية تظهر في بدايــة القصة ، تقدم ألوانا من العون والمساعدة لشخصية الراوي المحورية وباقــي الشخصــيات، فمعرفــتها أعم وأشمل وأصح، وخبرتها أوفى وأكثر وتجربــتها مع الواقع حقيقية وأكيدة، ولهذا تستند إليها الشخصيات أملا منها فــي حصــول الســعادة لها، وطموحا في تحقيق الانتقال من الواقع المميت المهيــن إلــى حــياة مشرقة تنفض عنها غبار النسيان والإهمال، وتعيد لها وظيفتها الطبيعية في الحياة وظيفة حرة نافعة إيجابية سعيدة. ومن هنا يسأل ســعيدعن الطريق الذي بدأت الشخصيات السير فيه، وتأمل أن يوصلها إلى مــا هو أفضل:" أما زال الطريق طويلا يا سعيد؟" (69) فالعياء نخر الأجساد والوهــن تسرب إلى النفوس، والسير طال ولم تر تباشير النهاية، لكنها مع

مرشـد خبـير يعـرف الطريق ويعرف نقطة الوصول، وهي تسند له أمر قيادتها وإيصالها إلى بر الأمان" وتطلعت إلى الفتى الأسمر الذي جاء يرشدنا إلـى المسعى. "[70] . وشخصية الراوي المحورية بهذا القول تكشف لنا عن وظـيفة سـعيد الحقيقية فهي لا تقتصر على السهر على الانتقال من مكان لآخر بأمان ودراية بل إنها ترشدها وتهديها إلى المسعى، والمسعى هو هدف نبـيل عـام، ومـنه المسعاة أي المكرمة في أنواع المجد [71] يتم بالعمل والتصرف ببذل الجهد الفكري والعضلي لتحقيقه . ووظيفة سعيد تتجاوز ذلك إلـى تحـريك المشـاعر الرقيقة في النفوس المتجمدة، وبعث رعشة الحياة والحـب فيها، فهو فتى أسمر، تجلب فتوته الانتباه وتثير سمرته الأحاسيس فـيجعل مـن يـتقرب مـنه يتطلع فيه، وإليه، لقد كان مجرد أخبار تتناقل ومشـاعر وهمـية لا تعبر عن الواقع، وأغنيات هائمة لا تستقر، لكنه الان يـتدخل فـي توجيه شخصية الراوي المحورية وعائشة وأمينة ومساعدتهم واتخـذ مطـية للإفصـاح عن همومهم ، والتعبير عن هواجسهم، والتشبث بـأهدافهم والتغنـي بآمالهم، ورؤية مستقبلهم الزاهر. وهو زخم من الأفكار والمشـاعر أرادت أن تجسده هذه الشخصية لخدمة الموضوع الأصلي الذي أثارتـه شخصـية الـراوي المحورية، ولكن هذا التراكم الكمي في الأفكار والمشاعر بالصورة التي وظف فيها في هذه الشخصية وسمها بالثقل والبطء وأثـر على تطور القصة ونموها وتفاعل الشخصيات فيها فبدا الحدث زاحفا متعبا، فسعيد يقص أفكاره ويستغرق في ذلك طويلا جدا[72] بما لا يتناسب مع قصة قصيرة.

4- الأخ

أما شخصية الأخ فهي تحمل في معناها الرابطة القوية التي تشد أزر المجتمع وهي رابطة تخرج من إطار العلاقة الدموية الأسرية إلى إطار العلاقة العامة التضامنية ومن ثم وجدناه يبدأ فردا [73] ثم يتعدد [74] وهو متنور ناقل للمعرفة، ومرشد أيضا وميزته أنه بادر إلى الفعل التحرري فاقتحم المجهول ليحقق الذات الواعية ويمهد الطريق لغيره" أخي سار ومهد الطريق وعلي أنا أن أكون الساعد والرفيق" [75] الأخ تحرر ورفع رأسه عاليا، وينتظر من المرأة أن تحرر من نفسها أولا لتواكبه في كفاحه، إنه ينظر إليها بعطف وإشفاق، يرقب مسيرتها ويشجعها، ويرفض أن تبقى مهانة مهمشة، ويطمح أن يراها بجنبه حية فاعلة [76].

إن الأخ الحقيقي هو الوطني المحب لأرضه المتمسك بها الساعي إلى تحريرها وتطويرها، وإن هذا النوع من الأخوة لكثير، إنهم يصنعون المجد ويهيئون لمستقبل زاهر مشرق، إن أعمالهم عظيمة ولا بد أن تشارك الأخت أخاها في هذا البناء.

5- الأم

أما شخصية الأم فقد وصفت بالعجوز وهو وصف يتجاوز دلالة الشيخوخة إلى دلالة العجز والقصور، فهي تتحكم فيها التقاليد والعادات لا تبحث عن التجديد ولا تريد الخروج من التقوقع، لا تفكر في كسر القيود تذهل وتندهش إن تسربت إلى ذهنها العتيق بوادر التجديد والانقلاب. إنها سلبية، قصور في الفكر، وعجز في الإرادة، وانعدام الطموح، ولعل ذلك يعود إلى تراكم السلبيات وتكريس التهميش وخنوع الذات لكن عمقها طيب ومعدنها سليم، ولذلك هي بغير وعي منها تدعو لابنتها بالتوفيق والرعاية

"وتحركت البذور الغافية دون أن تفهم أمي، وهمست بغير وعي.. سيري والله يرعاك ويرعاهم."[77].

ونظرة الفتاة (شخصية الراوي المحورية) إلى أمها تكشف على أن هذه الأم هي التقاليد البالية، والعادات الواهية التي قيدت المرأة وهمشتها ردحا من الزمن ولذلك تقول عنها:" وعرفت معنى نظرتها.. تلك النظرة التي جمدتنا وراء الجدران، أحجارا تتحرك كل حركة بحساب.."[78]، ولذلك تصفها بأوصاف قاسية لا تنسجم مع لفظ الأم الموحي بالخصب والحياة والحنان والاستمرار. فتنعتها بالعجوز"أمي العجوز" [79] وبأنها لا تفهم "ولم تفهم الأم من كلماتي شيئا" [80] وبأنه ليس لديها طموح ولا قدرة على التطور والإدراك "وعيناها الكليلتان أضعف من التطلع إلى أبعد من وقع أقدامها" [81] .لكنها مع كل هذا تبارك فعل ابنتها فيكون ذلك حافزاهاما لولادة جديدة من رحم الأزمة "وخرجت إلى حيث عائشة وأمينة وشعرنا ونحن نضرب الشارع أننا خلقنا آن ذاك فقط خلقنا لكي نؤدي الدوركأحياء"[82] . إنهن ولدن أمواتا من أمهاتهن لكنهن أصررن على الحياة فولدن ولادة وجودية. ومن ثم كانت عواطفهن تجاه الأم الأولى عواطف عرفان للجميل فقط . أما الإحساس بالولادة الثانية فيتمثل في رعشة البعث وتباشير الفجر الكبير.[83] .

ومما يلاحظ على هذه القصة القصيرة "خطوات في الثلوج " أنها تدور بشكل أساسي حول شخصية الراوي، ومن ثم كان ضمير المتكلم هو البارز والمهيمن عليها كما أشرنا سابقا، الشيء الذي جعل هذه الشخصية المحور الذي تلتف حوله بقية الشخصيات وتتكاتف لإثرائها وإبراز معالمها، ومعنى

هــذا أن الكاتبة قد جعلت من نفسها "النقطة التي تلتقي فيها وتخرج منها كل الخـيوط ، والـبؤرة التي تلتقي فيها وتخرج منها كل الأشعة" (84) وهو ما أضـفى علـى القصـة لونـا من المباشرة والخطابية والثقل عند استطراد الشخصية في الحديث الطويل.

المـــــراجع والهـــــوامش

1. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، جمع وتقديم: شريبط أحمد شريبط، سلسلة ذاكرة الأدب الجزائري، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها التابع لوزارة الاتصال والثقافة، ط 1 ، الجزائر 2001، ص 101

* أديبة جزائرية حديثة ولدت في 20 ديسمبر 1943 بإحدى قرى ولاية خنشلة، وتوفيت في 22 نوفمبر 1972، تنوع أدبها من القصة القصيرة إلى المقالات والخواطر إلى نصوص مسرحية إلى رسائل. جمعها الأستاذ شريبط أحمد شريبط ونشرها في كتاب بعنوان الآثار الأدبية الكاملة لزوليخا السعودي.

2. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 101.
3. نفسه ص 104 .

- ورد في النص " ولم توحي " وهو خطأ لا شك أنه مطبعي .
- ورد أيضا " بل كان يهز.. ويغرق " وغيرتها لتنسجم العبارة.

4. نفسه، ص 105 .
5. نفسه، ص 106 .
6. نفسه، ص 101 .
7. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر، ط 2 ، 1972 ، مادة: رنا .
8. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 104 .
9. نفسه، ص 105 .
10. نفسه، ص 106 .

11. نفسه، ص 106 .
12. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة: خطا.
13. نفسه، مادة: ثلج.
14. نفسه، مادة: ثلج.
15. خان محمد، العلم الوطني"دراسة للشكل واللون "، محاضرات الملتقى الوطني الثاني،السيماء والنص الأدبي، منشورات الجامعة، مطبعة دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2002 ، ص 18 .
16. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة:بيض.
17. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط 14 ، 1980 ، ج 3، ص 178 / 179 .
18. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 105 .
19. نفسه، ص 101 .
20. نفسه، ص 106 .
21. نفسه، ص 101 .
22. نفسه، ص 101.
23. نفسه، ص101.
24. نفسه، ص101.
25. نفسه، ص101.
26. نفسه، ص101.
27. نفسه، ص101.
28. نفسه، ص102.
29. نفسه، ص105.
30. نفسه، ص101.
31. نفسه، ص101.
32. نفسه، ص103.
33. نفسه، ص102.

34. نفسه، ص105.
35. نفسه، ص102.
36. نفسه، ص 103
37. نفسه، ص 103.
38. نفسه، ص 102.
39. نفسه، ص 103.
40. نفسه، ص105.
41. نفسه، ص 105.
42. نفسه، ص 102.
43. نفسه، ص 105.
44. نفسه، ص 102.
45. نفسه، ص 101.
46. نفسه، ص 103.
47. نفسه، ص 101.
48. نفسه، ص 101.
49. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة: صلع.
50. نفسه، مادة: فتى.
51. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 103 .
52. نفسه ص 103 .
53. رشاد رشدي، نظرية الدراما من أرسطو إلى الآن، دارا لعودة ، بيروت، لبنان، ط 2، 1975، ص 36 / 37 .
54. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 102 .
55. نفسه، ص 105 .
56. نفسه، ص 102 .
57. نفسه، ص 103 .
58. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة عاش .
59. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 101 .

60. نفسه، ص 101 .
61. نفسه، ص 102 .
62. نفسه، ص 105 .
63. نفسه، ص 101 .
64. نفسه، ص 106 .
65. نفسه، ص 103 .
66. نفسه، ص 106 .
67. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج 1، ص 97 .
68. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة: سعد.
69. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 101 .
70. نفسه، ص 101 .
71. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة: سعى.
72. زوليخا السعودي، الآثار الأدبية الكاملة، ص 103، 104، 105 .
73. نفسه، ص 101 .
74. نفسه، ص 103.
75. نفسه، ص 102.
76. نفسه، ص 103.
77. نفسه، ص103.
78. نفسه، ص 102.
79. نفسه، ص 102.
80. نفسه، ص 102.
81. نفسه، ص102.
82. نفسه، ص 103.
83. نفسه، ص103.
84. لويس عوض،مقالات في النقدوالأدب،دارالجيل للطباعةوالنشربالفجالةمصر .ص377